الفصل الثامن
(رحلة الشيخ)

لم يصدق (عدنان) نفسه وهو يسير وراء الشيخ الذي حلم طوال الوقت برؤيته، كان يراه شخصا عاديا، ولا يستحق هالة الأسطورة التي تنسج حوله ، ولكن رغم ذلك طريقة ظهوره العجيبة وعدم رؤيته خلال الأيام الماضية رغم البحث المضني عنه جعلت له هيبة لم تزل تخالج نفس (عدنان).

كان الشيخ يسعي به بين ركنات الجبل التي حفظها (عدنان) عن ظهر قلب، حتي أقترب منه من باب صغير لكهف، يكاد (عدنان) يقسم انه قد مره بهذا المكان أكثر من عشر مرات من قبل ولم يري ذلك الكهف أبدا وكأن قوة سحرية قد أخفته، توقف الشيخ عند المدخل للحظة ثم التفت إلي (عدنان) قائلا:

- تجرد من دنياك قبل الدخول

- ماذا تقصد ؟

قالها (عدنان) بدهشة فأشار الشيخ إلي حقيبته وهاتفه الجوال، القي (عدنان) الحقيبة جانبا وإن تمسك بالجوال في يده ، فصمت الشيخ ووقف لا يتحرك، أيقن (عدنان) أن عليه ان يتخلص من جواله كذلك، فوضعه في الحقيبة ثم اعطاها للشيخ ليحفظها، لدهشته حرك الشيخ الحقيبة كلها في الهواء وبحركة واحدة طوحها بعيدا لتسقط من فوق الجبل، هم (عدنا) بالتفوه باللعنة علي

الشيخ ولكنه تذكر ما قد جاء من أجله، لقد أتي من أجل المعرفة وهذا الشيخ هو من سيمنحه إياها ولا يهم ما سيخسره في سبيل ذلك وإن شعر بالحسرة علي الحقيبة رغم أن ما بها لا يساوي الكثير ، مجرد بعض المتاع القليل من حطام الدنيا الزائل وبقادر علي تعويضه فيما بعد.

ولكن ماذا سيحدث لو اتصلت به (شهيدة) علي جواله ووجدته لا يعمل أو مغلقا، ستصاب بالجنون حتما ولربما أبلغت الشرطة، ولكن هذا الخاطر لم يشغل باله كثيرا، فما هو علي وشك كسبه أكثر مما علي وشك خسرانه.

ابتسم وهو يواجه الشيخ الذي أشار له بالدخول من باب الكهف الصغير، فحشر نفسه وراء الشيخ وهو يدلف للداخل ، كان الباب بالكاد يتسع لدخول إنسان متوسط الحجم وعاني في الدخول ولكن عيناه اتسعت في دهشة حينما وجد نفسه بالداخل ووجد الكهف رحبا وكأنه عبارة عن منزل ضخم، كان سقف الكهف يمتد لخمسة أمتار علي الأقل إرتفاعا بينما يتسع بين جانباه حتي انه يشبه ملعبا صغيرا لكرة القدم، من الغريب أنه لم ينتبه احد سوي الشيخ لهذا الفضاء الواسع داخل الجبل، هذا الكهف يشبه قلب الجبل إن كان له قلب.

ورغم الإتساع الهائل للكهف من الداخل لم يكن يحتوي علي الكثير، هناك حشية فراش للنوم علي الأرض ممدودة قدر أنها تستخدم للنوم وللصلاة في ذات الوقت، هناك إناء به ماء، لا يعلم كيف يحصل الشيخ علي الماء في مكان مثل هذا، هناك إناء أخر به قطع من جبن الماعز وطبقا به خبزا باكستانيا جافا، وهناك

سلسلة طويلة مثبتة بالحائط طولها ثلاث امتار علي الأقل وتنتهي بقيد حديدي، رأي الشيخ ينتزع القيد وهو يضعه حول قدمه اليمني ليحكم غلقه فصاح به :

- ما هذا القيد، ولم تضعه حول كاحلك؟

ابتسم له الشيخ وهو يقول :

- هذا القيد فيه حريتي

كانت عبارته مبهمة ولم يكن (عدنان) يود أن يسمع عبارات مبهمة مجددا، كان يبحث عن إجابات واضحة لأسئلة مباشرة، هذا الغموض أخر ما يسعي له، ولكنه جاري الشيخ في حديثه سائلا:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الحرية احيانا تكمن في القيود، حينما تقوم بعباداتك أنت تصبح عبدا لله ولكنك تتحرر من عبودية الدنيا ولذا فالحرية أحيانا تكمن في القيود ، حينما تعبد الله تصير حرا من أسر شهواتك ودنيتك

- ولكنك انت من وضع قيدك بنفسك، معني هذا أنها عبودية زائفة

- حقا ما تقول ! إذن تعال وحاول فك القيد بيداك

اقترب منه (عدنان) وهو يتلمس القيد الذي استحكم حول كاحل الرجل، لم يكن هناك من وسيلة لفكه إلا بتحطيمه بالمطرقة فقال له (عدنان) في دهشة:

- كيف فعلت هذا؟

- فعلت ماذا؟

- كيف اوثقت نفسك بهذا القيد الحديدي، هل هناك من مفتاح ما مخبأ هنا او هناك ؟

- ليس هناك من مفتاح ، أنت كنت المفتاح

- ماذا تقصد؟

- أقصد أني اضع قيدي حتي لا اخرج من كهفي ولا اقطع خلوتي ، العجيب أني بين حين وأخر أجد القيد ينفك من تلقاء نفسه فاعلم أنه هناك من يريدني بشدة للمساعدة وأخرج من الكهف بحثا عنه، وهذا الصباح انفك القيد فخرجت ووجدتك

- ولكني ابحث عنك كل يوم فلماذا وجدتني اليوم فقط ؟

- ربما لم تكن تبحث برغبة حقيقية من قبل ، أخلصت النية فأنفك القيد لدي

- ومن الذي اتي بالقيد من الأساس، من أنت؟

- أنا كما دعوتني الشيخ الشبح.

- أليس لك أسما تعرف به، أنت بشر أليس كذلك ؟

- ربما.

- ماذا تقصد بربما ؟

- في حياة سابقة كنت كل شيء ، بشرا وشيطانا وملاكا وحيوانا

- هل هذا تناسخ أرواح ام ماذا؟

- لا ولكن السلف يقولون خلقت الملائكة من عقل بلا شهوة وخلقت الحيوانات من شهوة بلا عقل وخلق الإنسان من الاثنان فمن غلب عقله شهوته كان أرقي من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله كان أدني من الحيوانات، وأنا كنت هذا وذاك وكنت أعلي وأدني.

- لا أفهمك، لماذا لا تتحدث بلغة مستقيمة ؟

- لغتي أنا مستقيمة، عقلك أنت هو المعوج.

- إذن علمني، دلني، كيف أعدل عقلي ؟

- هل متأكد بأنك مستعد لهذا، لربما لو عدلت عقلك مثلما فعلت معي، فلن تخرج من ذلك الكهف مجددا.

- لابأس، لو هذا سيضمن لي السعادة ورضا الله.

- الكهف رغم اتساعه لا يحتمل جسدان في وقت واحد.

- اذن علمني ما استطيع أن ابلغه حتي اواجه العالم بالخارج، أريد أن اتوب عن ذنوبي واتوقف عن فعلها، أريد أن اعود إلي الله ، اريد ان يتوب الله علي.

- لقد عدت ولقد تاب.

- كيف هذا، لا اظن أنني فعلت أو أنه قد رضا

- أنت هنا الأن وليس هناك في أرضك وهذا دلالة أنه قد رضي.

- وما دليلك علي ذلك ؟ لا أريد كلام وردي مرسل

- لو لم يرغب بلقائك لما يسر لك أن تخطو خطوة واحدة من دارك إلي هنا ، أنت جئت تبحث عني وهذا هو الظاهر لك ولكن في خبايا نفسك أنت جئت تبحث عن الله، سافرت أميالا وقطعت مدنا عديدة حتي تجده، واختبر الله صبرك علي تلك الرحلة فعسر لك الوصول ولكنك أبيت إلا أن تصل ، أنت خضت نفس رحلة موسي في البحث عن الحقيقة حينما قال والناقل عنه المولي سبحانه وتعالي" لا أبرح حتي أبلغ"

نظر له (عدنان) بدهشة قبل أن يقول له متوجسا :

- من انت ؟ هل أنت الخضر ؟

- أنا خضرك انت ، ربما لست خضر موسي

- حسنا، إذن لو كان الله قد قبلني مجددا، ما الذي علي فعله، هل اخرج من الكهف وأعود إلي حياتي السابقة، ماذا لو حدثت لي إنتكاسة ؟

- من الممكن أن تحدث.

- وماذا سأفعل حينها ؟

- ستتوب مجددًا

- ثم أعصي مجددا

- ثم تتوب مجددا

- حتي متي؟

-حتي تقابل الله وأنت علي جهادك مع نفسك ومع شيطانك.

- وماذا لو كان ختامها ذنب.

- يحتمل ولكن الله أرحم بعبده المجاهد من أن يختم له بشر، استمر وادعو الله وسيختم لك بحسن الختام

- تقول يحتمل، هذه العبارة تخيف، أريد أجابة محددة ، نعم أم لا ؟

- لو أردت إجابة محددة إمكث هنا معي بالكهف ، لن تفعل خيرا أو شرا طوال حياتك ولكنك لم تخلق من أجل هذا

- انت فعلت وربما حزت رضا الله.

- كل إنسان الزمناه طائره في عنقه، أنت وانا مختلفان، ذنبي ليس ذنبك وذنبك ليس لي.

- هذه الألغاز اللغوية العقلية لا أفهمها

- لأنه لازال بك أثر من حمل حقيبتك التي حملتها معك، القيناها بالخارج ولازال جزء منك متعلقا بها، ستكون جاهزا متي تخلصت منها كلية.

- حسنا، أنا معك ، فعلمني

- قم فتوضأ

اتبعه (عدنان) وهو يتوضأ من الإناء الصغير الذي أمامه ثم يتخذ مكانه خلف الشيخ الذي كبر للصلاة ثم قرأ القرأن، وخشع (عدنان) بصلاته وكان الكهف حاجزا عن كل هموم وكروب الدنيا، نسي نفسه من أين اتي وإلي أين

يذهب وأنغمس في صلاته، دعا الله ان يديم عليه هذه الحالة الوجدانية للأبد ، وكانت هذه الصلاة بداية لأشياء عديدة تلتها.

كان يقضي اليوم يستمع للشيخ ويتبعه في عباداته، عمله الصلاة علي احق وجهها، وصام معه يوما، علمه الصوم عن الذنوب بالكامل، فتح له مدارك اللغة الوجدانية، وعلمه حسن الدعاء، لم يدري (عدنان) كم مكث بالكهف، ظنها أيام معدودة او اسبوع حد أقصي وتعجب كيف لم ينفذ الماء او الطعام لدي الشيخ وهو بالكاد إناء واحد ولكنه لم يسأل هذا السؤال المنطقي وسط كل هذا اللامنطق الذي حوله.

كان الشيخ لا يزال في قيده و(عدنان) يشعر بأنه يدخل في قيد الحرية الذي وصفه له الشيخ، بدأ يصلي لأنه يحب الصلاة وليس خوفا من نار الأخرة، بدأ يحلو له الدعاء ويحسنه ، لم يعد يخاف من تفاوت الرزق ، فلم يعد يتحسر علي أمسه ولا يقلق بشأن مستقبله.

كان فقط ما يخشاه ان تحدث له إنتكاسة إيمانية حينما يخرج من كهفه، ولكن الشيخ طمأنه أنه طالما حصن نفسه بالعبادات فهي ستكون له درع وسيف لمحاربة أي غواية او معصية.

سأل شيخه مرة:

- كيف أتعامل مع الحياة التي أحياها، هل أزهد بها تماما أم أنغمس بها وأضيع أخرتي

أجابه الشيخ:

- الحياة جسر، والأخرة هي دار القرار وما عيش الا عيش الأخرة

- إذن تنصحني أن اترك حياتي الدنيا

- لم أقل هذا، قلت أنها جسر ولا يصح أن تبني دارا علي جسر.

تمعن في القول جيدا قبل أن يقول للشيخ :

- هل أعمل لدنياي وكأني أموت غدا.

- علي حسب ما تعمله ولكن إبتغ الأخرة ولا تنسي نصيبك من الدنيا، كما قلت لك الدنيا جسر فحاول أن تستمتع بعبوره دون أن تظن أنك مقيم به.

- وكيف أدع الدنيا وهي مزخرفة بالألوان أمامي ؟

- لا تدعها ، إغترف مما حلل وأترك ما حرم. أحل لك الف شيء وحرم عليك شيئا واحدا من كل صنف ، ألا يعد هذا نعمة من الله عز وجل.

- وكيف أكفر عن سيئاتي السابقة ، وهي كالجبال طولا ؟

- ينظر الله إلي توبتك فيستحسنها ويمحوها كأنها لم تكن أبدًا.

- كيف توقن من رحمة الله هكذا ؟

- لأني أري من مظاهر رحمة البشر، الضحية تغفر لمعذبها واهل المقتول يغفرون للقاتل وحتي زوج المرأة يغفر لعشيقها وما رحمتهم بجزء من المائة من رحمة ربك ، فكيف تخاف وأنت تعود إليه.

بعد فترة من السكينة والطمأنينة التي خالجت قبله، قال لشيخه متسائلا:

- هل تعتقد أني مستعد لمواجهة العالم الأن ؟

- لا ولن تكون مستعدا أبدا، نحن نواجه ثم نعرف الإجابة لاحقا ، ولكنك أقوي مما تظن.

- وكيف أعرف الإجابة ؟

- تعال معي.

لاحظ أن الشيخ يفك قيد كاحله مره أخري وود لو يعرف كيف يفعلها كل مرة ولكنه لم يجرؤ علي السؤال ، ثم تبع الشيخ إلي خارج الكهف في استسلام، كان الشيخ أول من خرج، ثم تلاه (عدنان) وحينما أصبح (عدنان) بالخارج لم يجد الشيخ وكأنما تبخر في الهواء، فنظر مرة أخري للخلف فلم يجد مدخل الكهف كذلك، طرق جدار الجبل بيده فلم يسمع أي صوت

لدهشته كذلك وجد حقيبته التي ألقاها الشيخ بعيدا ملقاة أمام الكهف، تري هل كان يتخيل كل هذا ويتوهمه، فلا شيخ ولا كهف ولا شيء من هذا كله حدث، لا يمكن، هو عاش أياما وليالي عديدة هناك ويعلم أن ما رأه قد راه حقا، لا يوجد وهم أو حلم يتجسد بكل هذا التفاصيل، وقلبه الذي تغير نحو الأفضل خير دليل علي ذلك

صاح بأعلي صوته مجددا مناديا الشيخ ولكنه لم يسمع ردا، فتح حقيبته بسرعة ليري أشيائه، كان طعامه قد فسد ، والهاتف الجوال قد انتهت بطاريته ، ضغط عليه ليفتحه، عمل معه للحظات قليلة قبل ان ينطفأ مجددا ، هذه اللحظات أعملته انه التاريخ قد تغير، مرت ستة أيام كاملة منذ دخل إلي الكهف. ستة أيام وخرج في اليوم السابع، لهذا الرقم سحر خاص، في سبعة أيام خلق الله الكون بأسره بسماواته وأراضيه، وفي سبعة أيام خلق فردوس روحه المبعثرة.

إذن ما حدث حقيقة وهو قد قابل الشيخ فعلا وعايشه طوال المدة السابقة، وحصل منه علي إجابات لأسئلة عديدة في عقله، كان كمن عاد من حجه ويعلم أنه قد سقطت كل ذنوبه.

شعر بقلق (شهيدة) عليه فأسرع يهبط الجبل في سرعة ويعود إلي فندقه الذي تركه، إندهش صاحب الفندق حينما رأه، وهو الذي ظنه لن يعود مجددا، كانت ذقنه قد استطالت قليلا وملابسه متسخة نوعا ما ولكن صاحب الفندق تطلع في وجهه مليا فسأله (عدنان) متوجسا وهو الذي لم يري مرآة منذ إسبوع :

- ما بك ؟

- وجهك منطلق وكأنه إزداد نورا.

ابتسم (عدنان) وغمره الإرتياح في نفسه وهو يقل له :

- حفظك الله، هل لي بشاحن لهذا الجوال ؟

- بالطبع.

قام بشحن هاتفه بسرعة وانتظر بجواره دقائق قبل ان يتصل ب (شهيدة) علي الفور ، حينما أتاه صوت (شهيدة) كانت مشاعرها مختلطة بين أشياء متناقضة ، فرحة بسماع صوته وغاضبة لإنقطاعه عنها ومتلهفة لمعرفة اخباره ، ووسط كل مشاعرها تلك ، شعر لأول وهلة أنه يود أن يقولها لها من كل قلبه فهتف بها قاطعا كل المشاعر كسكين يسري في الزبد:

- (شهيدة) أنا أحبك، وأخيرا وجدت نفسي.